المقاربة الدولوزية للمنهج البرغسوني

د/ العربي ميلود ،جامعة مستغانم.

يعد نص جيل دولوز حول البرغسونية من أهم النصوص الشارحة لفلسفة برغسون الروحية. فحين قراءة النصوص الأصلية لبرغسون من المعطيات المباشرة للشعور إلى التطور المبدع مرورا بالمادة والذاكرة، نلحظ الدفاع البرغسوني المستمر عن فكرة روحانية الحياة وديمومة واستمرارية الزمان النفسي مقابل التصورات والمناهج المادية التي طبعت فكر القرن التاسع عشر.
غير أن جيل دولوز سيحاول أن ينقل الفلسفة البرغسونية من طابعها الروحاني الصرف إلى المستوى المنهجي الصارم مترحلا في ثنايا فلسفته بدءا بالحدس كمنهج مرورا بنظرية التعدديات للزمان، إضافة إلى أنطولوجية وسيكولوجية الذاكرة، وصولا إلى نظرية الاندفاع الحيوي أين تلتقي فيها الحياة الروحية مع مادية الحياة الاجتماعية.

وما سنعرض له في هذه المقالة هو مقاربة جيل دولوز للمنهج الحدسي البرغسوني، أين سيشهد هذا مفهوم الحدس معه طفرة نوعية ومتميزة لينتقل من مستوى التعاطف الوجداني إلى مستوى المنهج العقلي.
" إن الحدس هو منهج البرغسونية، والحدس ليس عاطفة ولا إلهاما، أو انجذابا مشوشا، بل هو منهج معد، وحتى أحد مناهج الفلسفة الأكثر إعدادا. له قواعده الصارمة، التي تشكل ما يسميه برغسون (الزمان) في الفلسفة "[1].

عبارة دولوز هذه المعرّفة للحدس البرغسوني تدفعنا إلى أن نعيد النظر كليا في التعريف الشائع لمفهوم الحدس على أنه الإدراك المباشر للأشياء دون توسطات، غير أن المنهج تشكله مجموعة علائق عقلية وحتى إجرائية تهدف إلى بلوغ المعرفة وتحقيق الذات الإنسانية، أو بتعبير أدق فالمنهج يسعى دوما لأن يحقق العلاقة الترابطية بين الذات العارفة والموضوع المعروف. فكيف يمكن إذن للحدس كقوة اختبار باطني أن يحل محل المناهج العلمية الصارمة مع مجاوزة مطلقة لوظيفة العقل كأداة في بلوغ المعرفة ؟.

قد لا يمكن فهم الموقف الدولوزي هذا دون مقاربة الثنائية : حدس – عقل، مع الثنائية المقابلة لها روح – مادة. أي أن المنهج الحدسي لدى برغسون هو أحد تجليات الصراع المادي الروحاني في الفلسفة المعاصرة خصوصا، والتي

إهتمت في فترة زمنية محددة (القرن 19) بالوجود المادي للموجودات منتفضة على فكرة المطلق الهيغلية، معلية من شأن الوجود الفردي العيني الخارجي على الماهيات المجردة. وجاءت فلسفة برغسون لتحدث ثورة مفاهيمية بإعادة صياغة بعض المفاهيم الوجودية وتحديد أطرها العامة كالقيم والحرية، الصيرورة والثبات، الكم والكيف، المادة والروح، المكان والزمان، الوجود والماهية. وغيرها.
كل هذه المفاهيم تنطوي تحت التمايز الذي يقيمه برغسون بين مجال بحث كل من الفلسفة والعلم، فإن كان العلم يبتغي طريق التحليل والتركيب مؤلّها دور العقل في بلوغ الحقيقة وفي تحديد طبيعة الأشياء المادية والروحية على حد سواء. فإن برغسون يجعل من الحدس الأداة الفعلية في إدراك حقائق الأشياء والكشف عن مكنونات ذواتنا بغية معرفة وتفسير الظواهر الحالّة في عالم المادة – أو ما يسميه برغسون بعالم المكان -.

فإشكالية العلاقة بين الحدس والعقل تحمل في طياتها حدود السؤال الدولوزي حول الحدس كمنهج فلسفي قادر على مجاراة أكثر المناهج الفلسفية إعدادا وقادر في الوقت ذاته على إدراك وتوصيف العلاقة بين الذات والعالم. هذه العلاقة التي يمكن التأسيس لها فعليا من خلال إبداع وخلق المشكلات الفعلية أولا.

فمن الأهمية بمكان مع المنهج الحدسي أن نبحث في الإشكالات الحقيقية التي تعبر عن مكنوناتنا، متخلصين من سلطة المجتمع، اللغة والعادات. ومن التفكير في ذاك العالم النقطي المادي المنغمس تماما في عالم كمي مغلق، وهذا ما يؤكده برغسون حين يقول "أن العالم الذي يتناوله الرياضي يموت ويولد في كل آن، وهو لا يختلف عن العالم الذي فكر فيه (ديكارت) عند كلامه عن الخلق المستمر"[1]. فالعالم المادي عاجز عن النفاذ إلى بواطن الذات لأنه يعتمد الرموز كوسائط أصلية في بحث المشكلات القائمة، والتي هي في حد ذاتها مشكلات مفروضة علينا تنطوي على خلط دائم بين الكيف والكم، فقد توجد في عالم المكان أحوال مادية غير أنه من غير الممكن أن توجد أحوال نفسية، لأن حياتنا الباطنة تدرك إدراكا مباشرا بالحدس فهي شبيهة باللحن الموسيقي المنفصل كليا عن فكرة العدد المكانية.

لكن سؤال يظل يلازمنا حين التفكير في المنهج الحدسي من خلال الشعور : ألسنا نعبر عن شعورنا بواسطة الرموز، والأكثر من ذلك أننا نبحث في مشكلاتنا النفسية من خلال وسائط رمزية ؟.

يجيبنا برغسون عن هذا التساؤل بقوله : " أن الشعور كثيرا ما يجد نفسه فريسة لتلك الرغبة الحادة في التمييز، إذ أنه يستعيض عن الواقع بالرمز أو هو لا يرى الواقع إلا من خلال الرمز "[1]. لكن المنهج البرغسوني سيؤسس لنمطية تفكير جديدة طبيعتها التغير الدائم والحركة المتواصلة إذ أنها غير قارة في الإطارات الثابتة التي تمنحنا إياها اللغة والمجتمع والأعراف. والتي يضعنا فيها العلم ذو الوظيفة التحليلية لمشكلات جاهزة، يسميها ماركس بالمشكلات التي تقدر البشرية على حلها، والتي دأبت دوما على طرحها وتكرارها. وهي مشكلات زائفة حسب برغسون باعتبار أنها لا تعبر عن المشكلات الوجودية الفعلية " فالأمر يتعلق في الفلسفة وحتى في غيرها بإيجاد المشكلة وبالتالي طرحها أكثر مما بحلها، لأن مشكلة نظرية ما تحل ما إن يتم طرحها بشكل جيد "[2]. وها هنا يستحضر دولوز تاريخ الرياضيات الذي يمنح الحق لبرغسون حين تمييزه بين مشكلات فعلية وأخرى زائفة، فمقولة برغسون أنه حين تطرح المشكلات الحقيقية إلا وتحل يمكن مقاربتها "مع صيغة ماركس، الصحيحة لأجل الممارسة بالذات: لا تطرح البشرية على نفسها إلا المشكلات التي تستطيع حلها.

فالعالم حسب برغسون هو بناء من حركات خلاقة مبدعة متواصلة تقارب إشكالات الطبيعة وفق حركية الزمان المتصلة وعن طريق إدراك ماهيتها بقوة الحدس الباطني، إذ أن الحدس هو تجربة ميتافزيقية تتكشف ذواتنا من خلالها وتستجيب دوما لفعل التطور الخلاق في الحياة وتهيئ لنا أفضل السبل لإدراك ماهية الحقيقة المتمثلة أساسا بالشعور بالزمان المستمر " فما هو مطلق لا ينكشف إلا عن طريق الحدس، وما عداه فهو وليد التحليل.. ونسمي هنا الحدس المشاركة الوجدانية التي ننفذ بها إلى باطن أي موضوع "[3] . وهو مرتبط بالناحية التأملية للحياة، بينما العقل مرتبط بجانبها العملي الإجرائي.

فالحدس هو قوة مبدعة لمفاهيم الوجود وهو ثاو في مجال الفلسفة وأحد مناهجها الحامل لمعاني ودلالات الإشكالات الوجودية المستعصية أحيانا عن الفهم. وهو المنهج الأكثر إعدادا الذي من الممكن أن تعتمده الفلسفة في

خلق مفاهيمها وإدراك المعنى الحقيقي للوجود، فالفلسفة مع هذا المنهج قد تحمل تعريف دولوز لها بأنها "الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم"[1]. هذا الإبداع يحمله كذلك تعريف برغسون للوجود والموجودات، إذ يقول " بالنسبة للموجود الواعي، أن يوجد هو أن يتغير، وأن يتغير هو أن ينضج، وأن ينضج هو أن يخلق نفسه باستمرار "[2].

نعود لنتساءل عن هذا المنهج : هل الحدس منهج في التفكير أم في البحث، أم معرفة مباشرة خالصة ؟.

يضعنا جيل دولوز في كتابه عن برغسون قبالة منهج بحث وتفكير يدعى الحدس البرغسوني، له قواعد ضابطة وآليات محددة في فهم حقائق الأشياء، تتأت هذه القواعد من خلال أفعال ثلاث يأنف برغسون دوما على تقديمها كأفعال الحدس، تتعلق بطرح المشكلات وخلقها ، ومن ثمة يتم إكتشاف الإختلافات الحقيقية بينها في الطبيعة، ليتم بلوغ الهدف المراد ألا وهو إدراك الزمان الحقيقي.

أولى هذه القواعد المنهجية تتطلب ضبطا سليما وتحديدا دقيقا لمشكلاتنا المنتسبة إلى الوجود العام والخاص، مع تحديد علاقة التأثير والتأثر بين الإنسان والطبيعة أو بتعبير أشمل بين الذات والموضوع، إذ أن أغلب المشكلات التي تعودنا طرحها تحمل في تركيبتها العديد من التناقضات، فعلى سبيل المثال ليس هنالك " في فكرة اللاوجود، أقل، بل أكثر مما في فكرة الوجود، في الفوضى مما في النظام، في الممكن مما في الواقع، فهنالك في فكرة اللاوجود، فعلا، فكرة الوجود، مع عملية نفي معمّم منطقية "[3]. هذا ما يدعوه برغسون بالمشكلات الزائفة أو المشكلات التي أسيئ طرحها. فالطبيعة ليست شيئا قارا في مكان معين لا تحتكم لمبدأ التغير والتبدل بل هي تركيب من حوادث أهم خصائصها التدفق اللامتناهي، لذا يجب أن ندرج على تعقب كل مناحيها وزواياها المتعددة كي نحسن صياغة إشكالاتها.

ولربما يتضح لنا هذا البعد المنهجي في فلسفة برغسون من خلال قراءتنا لمؤلفه (محاولة في المعطيات المباشرة للشعور)، إذ كانت أول مشكلة يطرحها ويسعى لمعالجتها هي تفكيك المعرفة إلى طرفيها العلمي والفلسفي، متجاوزا بذلك تلك التفسيرات الميكانيكية والآلية التي عرفتها الفلسفة والعلم لجميع مناحي

الحياة حتى الروحية منها، فمع بزوغ نجم الفلسفات العلمية ممثلة أساسا في داروين، سبنسر، وأوغست كونت، صار كل ما هو موجود (بأتم معنى الكلمة) خاضع للقياس، ولعل هذا ما خلق أزمة فعلية للعلوم الأوربية – كما يرى ادموند هوسرل -، إذ أن سبب هذه الأزمة هو انغماس العقل الأوربي في المذاهب الطبيعية، العلماوية والوضعية. فهذه المدارس العلمية سعت إلى علمنة وعقلنة كل ما هو ذاتي. ولعل هذا البحث المضني للفكر العلمي الغربي، لرفع العلوم الإنسانية إلى مصاف العلوم الأمبريقية لهو هاجس فعلي اكتنف العقل الغربي مذ تداعيات المد الجارف للعقلنة التي جاءت بها الأنوارية، والذي انتهى بفشل في جميع المجالات ليتبخر حلم السلام الدائم الكانطي وفق منطق لا عقلاني، ما دفع برغسون وهوسرل في التفكير في الكينونة والذات بغية سريان الروح العامة للفرد وتجاوز الأنا الفيزيولوجي السطحي.

ثاني قواعد المنهج الحدسي البرغسوني يتمثل في إكتشاف الإختلافات الحقيقية في الطبيعة، بين عالمي الزمان والمكان، لمّا لهما من تداخلات عدة تجعلنا في الكثير من الأحيان نخلط بينهما، أي بين ما هو مدة وما هو امتداد، بين ما هو تعددي كيفي وعددي كمي، بين ما ثابت وما هو متحرك. إلخ.

مع هذه القاعدة نلج إلى المعنى الفعلي للحدس البرغسوني أين تصبح الحياة متاحة المعرفة بواسطة هذا المنهج، إذ يقول أن "هناك معنى أساسي، أن تفكر حدسيا هو أن تفكر في الزمان المستمر"[2]. وأن تفكر وفق المنهج الحدسي معناه أن تقيم حدا فاصلا في تفكيرك بين ما هو علم، وما هو فلسفة.

ولعل هذا ما دفع برغسون لأن يميز بين دائرتين من المعرفة ، دائرة العلم وحدد مجالها بالكم والامتداد والمكان " فالعلم يعمل أولا وقبل كل شيء في نطاق الرموز، وحتى إذا تطلعنا إلى أكثر العلوم الطبيعية بعدا عن التجريد ألا وهي علوم الحياة ، فإننا نجد بأنها تختص بالصورة المرئية للكائنات الحية "[3] .

ودائرة الفلسفة وهي تهتم بالكيف والشدة والزمان، فالعلم موضوعه المادة ومنهجه التجربة الحسية، أما الفلسفة "فموضوعها الروح ومنهجها التجربة الباطنية والروحية ومصدرها الحدس الذي أساسه التعاطف (sympathie) الروحي أو الغريزة السامية"[4]. ويشير برغسون (في مؤلفه الفكر والمتحرك) إلى أنه

يمكن أن يكون العلم ميتافيزيقا المادة ، ويمكن أن تكون الميتافيزيقا علم الروح لاعتمادها على المنهج الحدسي.

لكن حضور كلا البعدين الزماني والمكاني، الفلسفي والعلمي، المادي والروحي، في عالم الذات وارتباطاتها المكانية، مع تداخل بين تجربة الذات الباطنية وتجربتها في عالم الوقائع، يجعل من المنهج الحدسي، منهجا متعاليا على التجربة الخارجية ومنغمسا كل الإنغماس في عالم الأنا العميق ما يؤدي لا محال إلى إحلال القاعدة المنهجية الثالثة والمتمثلة في طرح المشكلات وحلها بعدما تخلصنا من جميع الإعتبارات العقلية العملية، لنخوض في التأمل ودراسة المعطيات الوافدة من عالم الشعور.

حركية منهجية حدسية برغسونية حملت وفق تراتبية منهجية منطقية دولوزية ملامح السؤال الفلسفي الذي تحمله علوم الروح وتعايشه التجربة الشعورية دوما، ألا وهو كيف يمكن للذات أن تدرك ذاتها وأن تباشر العالم المحيط بها.

المراجع :

[1] - جيل دولوز ، البرغسونية ، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1997،ص05.

[1] - هنري برغسون، التطور المبدع، ترجمة جميل صليبا، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع بيروت، 1981، ص16.

[1] – Henri Bergson, Essai sur Les Données Immédiates De La Conscience, P.U.F. Paris, 120[ed] , 1967,p95.

[2] - Henri Bergson, La Pensée et Le Mouvant, P.U.F. Paris, 47édition, 1962, p31.

[3] – Ibid., p181.

1 - جيل دولوز- فيلكس غتاري، ما هي الفلسفة ، مركز الإنماء الثقافي العربي، بيروت، ط1997،1، ص 30.

2 - هنري برغسون، التطور المبدع، مصدر سابق، ص08.

3 - جيل دولوز ، البرغسونية ، مصدر سابق ، ص 11.

2 - Henri Bergson , la pensée et le mouvant , op,cit., p 52.

3 - Ibid., p 182.

4 - Ibid., p 71.